

التواصل الثقافي بين حاضرتي القيروان والقلعة -المظاهر والنتائج-

Cultural communication between the cities of Kairouan and the Citadel- Manifestations and results-

علي عشي^{*1}

¹مخبر الأبحاث والدراسات متعدد التخصصات في القانون ، التراث والتاريخ، جامعة باتنة 1 (الجزائر)،

E-mail : ali.achi@univ-batna.dz

تاريخ القبول: 2025/11/19

تاريخ الإرسال: 2025/02/24

ملخص:

بعد سقوط القيروان على يد قبائل بني هلال في القرن 5هـ/11م شهدت الحاضرة هجرة جماعية للعلماء والنخبة نحو المغرب الأوسط، وبالضبط إلى قلعة بني حماد، ساهم ذلك في التواصل الاجتماعي والثقافي بين المغرب الأوسط والمغرب الأدنى بدون شك.

ومن هنا ستكون إشكالتنا حول أثر التواصل الحضاري بين حاضرة القيروان وقلعة بني حماد في الجانب الثقافي، ومدى تأثير هؤلاء المهاجرين القيروانيين باعتبارهم من الفئة الخاصة والمؤثرة في المجتمع؟ ولماذا قصدوا حاضرة قلعة بني حماد؟.

ونهدف من هذه المقالة إلى إبراز العلاقات الثقافية المتبادلة بين حاضرة القيروان وقلعة بني حماد، كما سنتبع في هذه المقالة المنهج التاريخي باعتبارنا نتحدث عن فترة تاريخية هامة وحساسة متمثلة في حملة بني هلال وتأثيرها على هجرة القيروانيين إلى القلعة إضافة إلى المنهج الوصفي الذي يسمح لنا بوصف الأوضاع الثقافية.

كلمات مفتاحية: قيروان؛ قلعة بني حماد؛ حاضرة؛ مغرب أوسط؛ تواصل ثقافي.

Abstract

After the fall of Kairouan at the hands of the Banu Hilal in 5 AH / 11 CE, the city witnessed a mass migration of scholars and the elite towards the Qalat Bani Hamad. This contributed to social and cultural communication, and thus our issue will be to examine the extent of the impact of these Kairouanian migrants, considering they belong to a special and influential category in society. Why did they choose to go to the Qalat Bani Hamad?

The aim of this article is to highlight the cultural relations between the two cities. We will adopt a historical approach in this article, as we are discussing an important historical period, in addition to a descriptive method that allows us to describe the cultural conditions.

Keywords: Kairouan; Qal'at Bani Hammad; capital; Central Maghreb; cultural continuity.

1- مقدمة

أنشأ الفاتحون المسلمون في بلاد المغرب العديد من الحواضر وأهمها مدينة القيروان، وعندما تمكّن الإبااضيون من إنشاء دولة لهم في بلاد المغرب كان أول عمل قاموا به تأسيس تاهرت حاضرة لهم، التي أصبحت مركز إشعاع فكري يأوي إليه طلبة العلم من كل فج عميق، وعندما قضى العبيديون على هذه الدولة برزت مراكز علمية أخرى منها المهدية ومدينة المسيلة سنة 315هـ/927م، كما ظهرت خلال العهد الحمادي حواضر مهمة منها أشير وقلعة بني حماد.

وبعد سقوط القيروان على يد قبائل بني هلال في القرن الخامس الهجري شهدت الحاضرة هجرة جماعية للعلماء والنخبة، نحو المغرب الأوسط، وبالضبط إلى قلعة بني حماد، ساهم ذلك في التواصل الاجتماعي والثقافي بين المغرب الأوسط والمغرب الأدنى، بدون شك.

ومن هنا ستكون إشكاليتنا حول أثر التواصل الحضاري بين حاضرة القيروان وقلعة بني حماد في الجانب الثقافي، ومدى تأثير هؤلاء المهاجرين القيروانيين باعتبارهم من الفئة الخاصة والمؤثرة في المجتمع؟ ولماذا قصدوا حاضرة قلعة بني حماد بالذات؟.

وقد دفعتنا عدة عوامل لاختيار هذا الموضوع:

- كونه من المواضيع غير المدروسة والتي يمر عليها الدارسين من الكرام من خلال ذكرها كنتيجة من نتائج الحملة الهلالية

- كون هذا التواصل الثقافي حدث عكسي مغاير لمجرى الهجرة السابق الذي كان من المغرب الأوسط نحو القيروان باعتبارها حاضرة بلاد المغرب وعاصمة العلم.

- إبراز العلاقات الثقافية المتبادلة بين حاضرة القيروان وقلعة بني حماد.

وستنبع في هذه المقالة المنهج التاريخي باعتبارنا نتحدث عن فترة تاريخية هامة وحساسة متمثلة في حملة بني هلال وتأثيرها على هجرة القيروانيين إلى القلعة إضافة إلى المنهج الوصفي الذي يسمح لنا بوصف الأوضاع الثقافية.

وللإجابة عن الإشكالية السابقة سنتبع هيكل هام لمداخلتنا وفق المخطط التالي:

2- التعريف بحاضرتي القيروان والقلعة:

إننا نحاول أن نجد مقاربة حضارية بين حاضرتين من أكبر حواضر بلاد المغرب الاسلامي وهي القيروان وقلعة بني حماد، رغم البعد الزمني الذي كان بينهما، حيث ظهرت الثانية بفقد الأخرى لمكانتها وبريقها الثقافي، وكان الفارق الزمني بين أوج ازدهار كل حاضرة أكثر من أربعة قرون، لكن ما يجمعهما أنه حدث مواصلة ثقافية وحمل المشعل من قبل قلعة بني حماد بعد أفول نجم القيروان، مستفيدة من هجرة علمائها ونخبها.

كانت القيروان قاعدة البلاد الإفريقية وأم مدائنها، وكانت أعظم مدن المغرب نظرا وأكثرها بشرا وأيسرها أموالا وأوسعها أحوالا (الحميري، 1975، صفحة 486)، ويعود ذلك إلى قدم عهدها ووفود الناس عليها لطلب العلم والتجارة؛ أما القلعة فهي محدثة نتيجة لظروف سياسية واقتصادية جعلتها تتبوأ مكانة مرموقة في ظرف قصير، بل أصبحت قبلة للعلماء والطلاب، فنشأت علاقات ثقافية وأواصر فكرية بين الحاضرتين، ساهم في توطيدها حملة أعراب بني هلال وما نتج عنها من هجرة نخبة القيروان إلى قلعة بني حماد.

2-1- حاضرة القيروان من التأسيس والمجد إلى المأساة الحضارية.

في سنة 50هـ/670م وقيل 48هـ/669م ولّى عقبة بن نافع إفريقية، فشرع في بناء مدينة القيروان. حيث كانت استراتيجية عقبة أن يتخذ معسكرا متقدما في إفريقية يكون مقرا لانطلاق حملات الفتح، فقد قال لأصحابه: "إن إفريقية إذا دخلها إمام تحرّموا بالإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أسلم منهم وارتد إلى الكفر. وأرى لكم - يا معشر المسلمين- أن تتخذوا مدينة نجعل بها عسكرا وتكون عزّ الإسلام إلى آخر الدهر" (النويري، 1985، صفحة 11) ويذكر ابن الأثير أن الذي حفز عقبة على بناء القيروان أن يؤمن عسكر المسلمين وأهاليهم وأموالهم من ثورة تكون من أهل البلاد (ابن الأثير، 1986، صفحة 230)، فأصبحت القيروان عاصمة بلاد المغرب خلال عصر الولاة، ثم حاضرة للدولة الأغلبية بعد قيامها، وتوالى عليها الولاة والأمراء والسلطين، خلال العهد الفاطمي والزييري.

والقيروان تعني مدينة أو معسكر أو جماعة مسلحة وهو لفظ فارسي معرب أصله كروان أو كريان بمعنى قافلة وقد استعملها ابن الحكم بمعنى مجتمع العسكر وقد بنيت في إحدى الوديان ذات الأشجار الكثيفة غير البعيدة عن الساحل (ابن عبد الحكم، 2001، صفحة 264) وهي تقع إلى الجنوب من قرطاجة الميناء البيزنطي القديم، وإلى الغرب بمسافة أقل من سوسة وقد استغرق العمل في القيروان أربع سنوات (الحموي، 1990، صفحة 149) واختار لها عقبة مكانا استراتيجيا هاما، إذ جعلها بعيدة عن الساحل خوفا من غارات البيزنطيين وبعيدة عن جوف الصحراء خوفا من غارات البربر.

بعد بناءها تحولت إلى مجال استقطاب لمن يريد الغزو ونشر الاسلام، فتوافد عليها الصحابة والتابعين التواقون لنشر اللغة العربية والاسلام، وتعليم القرآن الكريم ومبادئ الدين الجديد، فأنشأوا الكتاتيب والزوايا وقاموا ببناء المساجد، وغيرها من المؤسسات التعليمية والتثقيفية.

بذلك شهدت القيروان استقرارا هاما دام أكثر من أربعة قرون امتازت خلاله بروج الحركة الفكرية وانتعاش المجالس الأدبية التي كانت تعقد بحضرة الأمراء والحكام أو داخل المساجد

والزوايا المنتشرة بين أرجائها، مما جعلها محل أنظار الأمصار الأخرى، وفي هذا يقول ابن خلدون: "القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والأندلس، واستبحر عمرائهما وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة وبحور زاخرة" (ابن خلدون ، 2001، صفحة ج1، 544)

فبلغت القيروان أوج الحضارة وانتشار العمران مطلع القرن الخامس الهجري، حيث أحصي بها أكثر من ثلاثمائة جامع ومسجد، أهمها الجامع الأعظم، وتوفرت بها المؤسسات العمومية، ودار الضرب ومستشفيات، والقصور والمباني، منها قصر أبي الفتح وقصر حمص وقصر الماء والقصر الجديد، وقصر الضيافة، وهذا الازدهار العمراني يعطينا فكرة عن كثافة السكان في القيروان حيث قارب عددهم خمسمائة ألف نسمة.

فأصبحت القيروان مركزا عظيما في العالم الاسلامي لإشعاعها العلمي والحضاري، ولحياة فكرية وثقافية مزدهرة طيلة قرون من الزمن، شهدت فيها مختلف العلوم والفنون، وأصناف القراءات والروايات، بل وشهدت مختلف التيارات الفكرية والمذهبية (حسن حسني ، 1990، الصفحات 38-40)، وبالجمل فمدينة القيروان مُلك المغرب، ورأت من الممالك والملوك والدول والفقهاء والعلماء والصلحاء ما لم يكن مثله في قطر من الأرض، بل وازدحمت مجالس المعز بن باديس بالعلماء والأدباء والفقهاء، وتزينت بمناظراتهم العلمية العامرة وأصبحت تشم عبق العلم والدين والفقه في كل شبر منها، هذا بالإضافة إلى المعالم الحضارية والمرافق التي تزخر بها.

ولكن ما آلم القيروان هو الانكسار الذي تعرضت إليه من قبيل قبائل بدوية، فحولت تلك الحضارة بطابع الهزيمة والضياع والفراق مما جعل أغلب نخبتها يهاجرون إلى المغرب الأوسط أو صقلية، ومختلف الأصقاع بحثا عن الاستقرار والأمن وهربا من موطن العراك وما يلحق بهم من أضرار وموت محقق.

وتذكر المصادر أن من هاجر من القيروان إثر حملة بني هلال كانوا من زبدة المجتمع القيرواني، فمنهم العلماء والفقهاء والحرفيين والصناع والتجار، وطلاب العلم، وهذا بدءا من سنة 405هـ/1014م، فباتت القلعة مقصدا لمهاجري حواضر إفريقيا بعد أن تخربت القيروان وتحول عنها المعز الزيري إلى المهديّة، وظلت القبائل الهلالية تستولي على المدن تباعا، وتخرّبها، ولم يكن أمام أهاليها سوى الخروج بأمّعتهم ومهاراتهم إلى قلعة بني حماد (عشراتي ، 2002، صفحة 111).

2-2- حاضرة القلعة وازدهارها الفكري.

لقد اختار حماد بن بلكين موقعا استراتيجيا مهما لبناء قلعة بني حماد باعتبارها تتوسط بين عدة مدن وحواضر في تلك الفترة، إضافة إلى كونها معبرا للتجار والحجاج القاصدين بيت الله الحرام، لتصبح عاصمة الدولة الناشئة وهي الدولة الحمادية وتلعب دورا اقتصاديا وسياسيا وحضاريا.

وتتفق المصادر التاريخية في رواية تأسيس وبناء القلعة إلى الشمال من مدينة المسيلة، حيث يذكر ابن خلدون أن حماد بن بلكين بن زيري الصنهاجي اختطها بجبل كتامة سنة 398هـ/1007-1008م ، ولم يكملها إلا سنة 400هـ/1010م، ثم قام بتعميرها وتوسيع مرافقها من مساجد وفنادق وبنائات (ابن خلدون ، 2001، صفحة 27، ج6)

كما اعتبر موقع قلعة بني حماد في عصره كان من أحصن القلاع والمدن وبدأت تستبحر في العمران وتتوسع في المرافق من قصور وحمامات ومساجد، وأسواق، وحدائق، ومسكن، وهو الكلام الذي سيصدق عليه البكري في كتابه فيما بعد.

وبمجيء الأمير الناصر بن علناس(454هـ-481هـ/1062-1088م) وخليفته المنصور تبحر عمران القلعة وزادت أهميتها، فبذلك تحولت من قلعة حصينة دفاعية هدفها هو التصدي لأي عدوان إلى مدينة حاضرة لها مستقبل زاهر تتمتع بالمستوى الحضاري والثقافي، والرفاهية المطلوبة .

كما ضم جامع المنار بالقلعة مكتبة كبيرة ضمت العديد من الكتب والمصادر النادرة في تلك الفترة والقادمة من المشرق والأندلس، مما يبين أن القلعة كانت قبلة للعلماء والمفكرين، وخاصة بتشجيع من الملوك والأمراء (عويس ، 1999، صفحة 254)، فتطافرت الجهود والعوامل في ازدهار القلعة في البداية منها اجتراح قبائل بني هلال وبني سليم للقيروان وتخريبها (البكري، 1971، صفحة 49)، مما ساهم في هجرة الصنائع والتجار والحرفيين والعلماء إلى القلعة باعتبارهم أبناء عمومة صنهاجيين (بني حماد وبني زيري)، فاستفادت منهم القلعة استفادة كبيرة، من خلال تنشيط جميع نواحي الحياة .

بذلك وفد العلماء والادباء والمؤرخين على قلعة بني حماد من كل صوب وحذب، خاصة من إفريقية والقيروان بسبب سقوطها في أيدي الأعراب من بني هلال وبني سليم إضافة من قدم إليها من صقلية والأندلس، والمغرب الأقصى وسجلماسة، وهذا كله بفضل ازدهار الذي أصبحت عليه الحاضرة والأمن والاستقرار، إضافة إلى اهتمام وتشجيع ملوك بني حماد للعلم والعلماء.

لكن دوام الحال من المحال حيث أصاب القلعة ما أصاب القيروان من خلال تجرعها من نفس كأس القبائل البدوية الهلالية، إذ هزمت الناصر بن علناس في معركة سييبة سنة 457هـ/1065م، وزحفت على القلعة (النوري ، 1985، صفحة 123)، وخربتها فهرب هذا الأخير إلى العاصمة الجديدة بجاية مما عرض القلعة للتهميش والضياع.

بذلك كانت قلعة بني حماد أكثر الحواضر استيعابا للنخب العلمية القيروانية فبعد الاستقرار النسبي الذي تميزت به القلعة خلال الستين سنة الأولى والاحساس بالأمن الذي توفر لها قياسا بما يحدث من حولها، جعلها تغدو بمثابة تجمع لمختلف الفئات الثقافية والحضرية، مكّنها

من تكوين مجتمع خليط من الأفكار يعكس ألوانا عدة، يُأصل لمجتمع مدني وعمراني على مستوى عال من الرقي والتطور، بفضل تمازج خاصة القلعين والقيروين، حيث قام سكان تونس بإعلان طاعتهم وتبعيةهم للقلعة بعد تدهور أوضاع دولة بني زيري أبناء العمومة، ودخل أيضا أهل القيروان في طاعة الأمير الحمادي الناصر سنة 450هـ/1058م، ومشى أشياخ من أهل تونس والقيروان إلى القلعة وطلبوا منه تقديم وال من قبله عليهم، فأمرهم أن يختاروا واحدا منهم (الطمار، 2010، صفحة 106).

3- صور للتواصل الثقافي والحضاري بين الحاضرتين.

كان لهجرة العبيدين إلى مصر وإنشائهم للعاصمة القاهرة وقع على انتقال العديد من النخب من المغربين الاقصى والأدنى مع الخليفة الفاطمي، مما أفرغ الساحة من عدة كفاءات خاصة الكتامية منها، وهذا ما كان وقعه إجابي أيضا ببروز كفاءات جديدة ونخب مهمة تعود إلى قبيلة صنهاجة.

فإذا كان مؤسس الدولة الحمادية حماد بن بلكين قد رس وتعلم الفقه المالكي في القيروان، ولما أسس عاصمته الأولى أشير ثم القلعة جلس لمنصب القضاء بنفسه، يقضي بين الناس والمتخاصمين على مذهب الإمام مالك، مواصلا ما قام به ابن سحنون في القيروان من نصرة للمذهب المالكي والسني.

وتذكر المصادر كذلك أن أبو القاسم عبد الجليل الربيعي القروي ابن بكر المعروف بالديباجي والصابوني (ت بعد 478هـ/1085م)، كان عالما بالأصول مدرسا لها وله فيها تصانيف منها الكتاب المستوعب في أصول الفقه، ومنها كتاب الانتصار، اختصره من كتاب الانتصار لأبي بكر بن الطيب، وله رسالة في الاعتقادات، وأقرأ بقلعة بني حماد، وسمع منه أبو عبد الله بن أبي الخير الموروري بقلعة بني حماد، ويروي عنه أبو عبد الله بن خليفة كتاب التلخيص لأبي المعالي عن مؤلفه، وأخذ عنه أيضا أبو عبد الله محمد بن داود بن عطية القلعي، وغيرهم (ابن الأبار، 1995، صفحة 133، ج3).

فكان عالما أبو القاسم عبد الجليل بحرا خضما وطودا شامخا في العلوم العقلية والعقدية، وقد بعد صيته وتناهى فضله وكمل سؤدده في زمانه، وهو كبير الأشاعرة ومحققهم، وكبير الأصوليين ومدققهم، ومفخرة علماء القيروان وقلعة بني حماد.

ومن الذين لجأوا إلى قلعة بني حماد بعد نكبة القيروان سنة 449هـ/1057م نجد أبو القاسم عبد الخالق بن إبراهيم القريشي، المعروف بابن الكفاء، وهو شاعر بارع ذي الخاطر حسن الطريقة حلوفي جزله وحذق بالصنعة، روضة آداب وداعية إطراب، يضرب في كل علم بقدر، ويرجع من كل طريق بريح (ابن رشيق القيرواني، 1986، صفحة 136)، فقد قصد

الناصر بن علناس في القلعة، وامتدحه كثيرا، فرحب به وقربه إليه، وهكذا استفادت القلعة من هجرة هؤلاء النخب، وزادت الفائدة من خلال التواصل الثقافي والتلاقح العلمي بين الحاضرتين. كما نجد أحد أعظم الشعراء في القرن الخامس الهجري وهو ابن حمديس الصقلي(446-528هـ/1055م-1132م) الذي هاجر من صقلية هربا من النورمان، نحو إفريقية والقيروان ليتفاجأ بأوضاعها المزرية بعد تخريبها من الأعراب، ثم يمم وجهه شطر المغرب الأوسط فاحتضنه المنصور الحمادي في القلعة ثم بجاية، وخلد بطولاته وإنجازاته (ابن حمديس، 1985، صفحة 545)، ومنها توجه إلى الأندلس ودخل إشبيلية وجاور المعتمد بن عباد وامتدحه وكان من مقربه وبالتالي كان مثالا رائعا للتواصل الثقافي والفكري بين كل جهات الغرب الاسلامي.

ولم يكن التواصل في اتجاه واحد فقط أي من القيروان إلى القلعة بل كان كذلك في الاتجاه العكسي؛ أين جلبتهم سمعة القيروان في الميدان الثقافي ومن هؤلاء العلماء الذين ربطوا القطرين ببعضهما البعض بروابط التواصل الحضاري فنجد أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي التميمي (ت405هـ/1015م) من المحدثية (المسيلة) الذي درس في مدينته وأكد انتقاله إلى القلعة التي كانت حاضرة زمانها، ومنها انتقل إلى القيروان حيث أكمل ثقافته الواسعة في علم اللسان والأوزان، فأصبح كاتباً حاذقاً وشاعراً بارعاً وذا مكانة واسعة في النقد والشعر (الصفدي، 2000، صفحة 51)، لقد أعانت عبد الكريم تلك البيئة على الحصول على خصوصية كبيرة في الأدب، وقد اتصل بأولي الأمر، فكتب للمعز بن باديس، وله قصائد طوال كما كان لعبد الكريم صلات كثيرة جمعته مع مثقفي الدولة وملوكها.

والشاعر الفلكي أبو الحسن علي بن أبي الرجال الشيباني التهرتي(ت432هـ/1041م) الذي تعلم في بلده وربما زاد في علمه بقلعة بني حماد باعتبارها حاضرة علمية، ثم توجه إلى القيروان، فعاش في بلاط المعز بن باديس الزيري، ورئيس ديوان إنشائه، وقد أثنى عليه ابن رشيق ونعته بواحد الدهر وهو أديب وشاعر وفلكي، وله كتاب في أحكام النجوم، ونقله إلى الاسبانية يهوذا بن موسى سنة 1256م، وله أرجوزة في الأحكام الفلكية (الطمار، 2010، صفحة 198)، وتذكر المصادر أنه ابن أبي الرجال هو الذي لقن المعز مذهب مالك وكرهه في مذهب الشيعة، مما جعله عندما كبر وتولى الحكم نبذ طاعة الفاطميين وإعلان العودة للمذهب السني، وهذا يدل على الصلات الثقافية الوطيدة بين الحاضرتين والقطرين.

ومن معاصري النهشلي نجد الحسن بن محمد التميمي النحوي اللغوي النسابة التاهرتي أصلاً القيرواني طلباً للعلم، ويعرف بابن الربيب(ت430هـ/1039م) كان شاعراً مقدماً قوي الكلام خبيراً باللغة، لم تقدم لنا المصادر معلومات عن حياته قبل الهجرة إلى القيروان لكن الأمر يبدو أنه تعلم في الحواضر الكبرى في المغرب الأوسط منها قلعة بني حماد باعتبار تهرت قد دمرها أبو عبيد الله الشيعي قبل ولادته، وقد تخصص في فن المدح مما جعله ينال حظوة كبيرة، مما جعل

البعض يرفع مكانته أكثر من البلاذري والشاعر ابن بكار، وقد ترجم له السيوطي بأنه درس في القيروان على يد محمد بن حفص النحوي القزاز، فبلغ معه النهاية في الأدب وعلم الخبر والنسب (السيوطي، 1964، صفحة 525، ج1)، وهذا يبين التواصل الثقافي والصيت الذي بلغه ابن الريب بالربط بين المغرب الأوسط والأدنى بل حتى مع المشرق الاسلامي.

كما قصد القيروان الشاعر ابن رشيق المسيلي القلعي القيرواني (ت463هـ/1071م) فيعود موطنه إلى المسيلة ثم درس في قلعة بني حماد وهو أبو علي الحسن بن رشيق صاحب ديوان شعري كبير، وكتاب العمدة، ولد في المحمدية أو المسيلة حالياً في سنة 390 هـ،/1000م وهو مملوك من موالي الأزد-قبيلة عربية يمنية- وانتقل إلى القيروان سنة 406هـ/1016م، وغادرها إلى المهديّة بعد سنة 449هـ/1057م، وأخيراً غادرها مع حملة بني هلال نحو صقلية سنة 454هـ/1062م، أين توفي في مازر بعد سنة 456هـ/1064م والبعض يرجح أنه توفي بالقيروان أو المهديّة سنة 463هـ (ابن خلكان، 1972، الصفحات 85-86).

وهناك شخصية أخرى بلغت من الشهرة ما بلغت، وساهمت في ربط الأقطار الثلاثة ممثلة في الأندلس والمغرب الأدنى والمغرب الأوسط وهذه الشخصية هي أبو عبد الملك البوني، وهو مروان بن علي (أو محمد) الأسدي (ت قبل 440هـ/1049م) القطان الأندلسي (القرطبي) القيرواني واشتهر بالبوني لأنه استقر أواخر حياته في بونة أين مات فيها نشأ في قرطبة أين تتلمذ على يد شيوخها، ثم رحل إلى برد المشرق، ومنها عاد إلى القيروان، واستقر بها ردحا من الزمن طالبا للعلم، فكان يشهد مجالس علمائها، فأخذ عن أبي الحسن القابسي، وأبا جعفر بن نصر الداودي (القاضي، 1983، صفحة 259، ج7)، وفي أواخر حياته توجه إلى بونة أين استقر بها، وعكف على التدريس والتأليف، فألف شرحاً للموطأ وآخر للبخاري، انتشرا في كامل بلاد المغرب في أحسن صورة للتواصل الثقافي بين هذه الحواضر.

ومن الشخصيات التي هاجرت واستوطنت القلعة وأصلها من تونس أو المغرب الأدنى نجد شخصية أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بابن النحوي (ت513هـ/1119م)، صاحب قصيدة المنفرجة، وتذكر المصادر أنه من مواليد مدينة توزر بالجنوب التونسي، وترجع تاريخ ميلاده ب433هـ/1042م، أين نشأ وتعلم على يد أساتذة القيروان وإفريقية، منهم أبو الحسن اللخمي (ت478هـ/1085م) وعن عبد الله المازري (ت516هـ/1122م) وعن غيرهما، ثم قام برحلة طويلة وعند عودته وجد وطنه القيروان خراباً، وقد صودر واستولى عليه الهلاليون، وتم الاستلاء على أملاكه، فقرر الهجرة (ابن الأبار، 1995، صفحة 225، ج4)، وقد استوطن قلعة بني حماد بعد رحلة طويلة من الأسفار، وقضى بقية حياته (13 سنة) بها إلى أن توفي بها عن عمر ناهز الثمانين سنة.

وقد لقب بغزالي المغرب نسبة لأبي حامد الغزالي، نظرا لبلوغه درجة الاجتهاد وأصبح حجة في عمله وعلمه، إضافة إلى انتصاره لكتابه إحياء علوم الدين، حيث راسل سلطان المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين منكرًا احراقه له، ثم قام بنسخه ونشره وشرحه خلال ليالي رمضان بقلعة بني حماد (ابن الزيات ، 1995 ، الصفحات 95-99)

4-نتائج التواصل الحضاري وآثاره على الحضرتين.

كان ذلك التحول الاستراتيجي الذي قام به حماد بن بلكين بالانتقال إلى العاصمة الجديدة القلعة والتخلي عن أشير، يتطلع من خلاله على إنشاء ملك كبير، وإقامة دولة مستقرة مزدهرة، تمتاز بالتطور الحضاري وبالأزدهار العلمي والفكر، فقام بدعم العلاقات مع المغرب الأدنى باعتبارهم أبناء عمومة، نتج عنها سهولة الحركة والهجرة بين الطرفين، في مختلف الظروف. ومن نتائج التواصل الثقافي بين القطرين تبادل الأفكار والتأثيرات المذهبية، فتعد الدولة الحمادية أول دولة تخلت عن المذهب الشيعي بعد رحيل الفاطميين مما جعل أبناء عمومته من بني زيري يقتدون بهم وهذا مثال رائع للتأثير والتأثر بين تونس والجزائر أي بين المغرب الأدنى والأوسط، وقد شجع علماء القيروان هذا التحول بل حثوا دولتهم على فعل ذلك (الطمار، 2010، الصفحات 195-196).

كما حدثت حركة هجرة واسعة متبادلة بين الطرفين لكن كانت أكثر صوبة وأكثر حدوثا من جانب القيروانيين في اتجاه القلعة وهذا نظرا لتدهور الأوضاع في المغرب الأدنى إثر تعرضه لجحافل القبائل العربية، فأدخلوا مختلف الشروح والمصادر، والتصوف، وطرق التعليم ومناهجه، وغيرها من وسائل التواصل الحضاري بين حضرتي القيروان وقلعة بني حماد . ومن أمثلة ذلك انتشار قصيدة المنفرجة لابن النحوي الذي بعد استقراره بقلعة بني حماد حيث اشتغل بالتدريس فاختر عيش الزهد والتعب، وأثر أن يعيش على خطى شيخه الغزالي ويختار الانقطاع عن الحياة الصاخبة والتفرغ للإعداد للحياة الآخرة ومن أبيات هذه القصيدة (ابن النحوي ، 1984):

إشْتَدَى أَرْمَةٌ تَنْفَرِجِي قَدْ أَدَنَ لَيْلُكَ بِالْبَلَجِ
وَهَلَامُ اللَّيْلِ لَهُ سُرُجٌ حَتَّى يَغْشَاهُ أَبُو السُّرُجِ
وَسَحَابُ الْخَيْرِ لَهَا مَطَرٌ فَإِذَا جَاءَ الْإِبَانُ نَجِ
وَفَوَائِدُ مَوْلَانَا جُمْلٌ لِسُرُوجِ الْأَنْفُسِ وَالْمُهْجِ

ونتج عن التواصل الحضاري والامتزاج الفكري بين الحضرتين القيروان وقلعة بني حماد انتشار الأشعار الزهدية على غرار قصيدة المنفرجة التي أصبح يتدارسها الطلاب في كلا القطرين بل تعدت إلى كامل البلاد الإسلامية، وانتشر تعليمها في مراكز التعليم كالمساجد والزوايا والكتاتيب،

بل أصبحت تحفظ وتدرج ضمن برامج ومناهج الطلاب الذين يقصدون شيوخهم لسماعها وأخذ إجازتها، بل أصبح حتى العامة من الناس من أصيب بشدة وأزمة ينشدها اعتقاداً منهم أنها تضم اسم الله الأعظم الذي ما دعا به أحد إلا استجاب له، وأخذت العناية بهذه القصيدة صوراً مختلفة ما بين شارح وتخميس ومعارضة، فقد أحصي لها ما يزيد عن عشرة شروح (باشا ، 1992، صفحة 518، ج 5)

وجهود الحسن بن محمد التميمي التاهرتي القيرواني، الذي يلقب بابن الريب (ت430هـ/1039م)، في ميدان التواصل الثقافي بين المغربين الأدنى والأوسط، تعدى صيته إلى الأندلس، حيث أورد ابن بسام الرسالة التي بعثها ابن الريب إلى المغيرة عبد الوهاب بن حزم والتي وصف فيها تقصير أدباء الأندلس وتفريطهم في حق آثارهم وضائلهم، ومآثر بلادهم (الششتري ، 1997، صفحة 133، ج 1). وتدل الرسالة على ما وصل إليه الحقل الأدبي من الخصوبة في القيروان، بمشاركة علماء وفقهاء وأدباء من المغرب الأوسط.

أيضاً كان من المهاجرين من القيروان وإفريقية أبو القاسم عبد الجليل الربيعي القروي إثر الغزو الهلالي سنة 449هـ/1057م، ولد ونشأ بالقيروان، تعلم على يد العديد من الفقهاء منهم الامام أبي عبد الله الأذري، والامام أبي عمران الفاسي، وبقي متنقلاً بين الأندلس وفاس وقلعة بني حماد مما يبين الصلات الثقافية التي زرعها هذا العالم الجليل حيث أينما ذهب وارتحل إلا ودرس الطلبة والتف حوله أهل العلم في حلقات ومجالس علمية، كما ساهم بنشر الأشعرية في الدولة الحمادية عامة والقلعة خاصة من خلال تدريس الطلبة وشرح مصنفاتها.

فتتلذذ على يد الامام عبد الجليل القروي تلاميذ كثر، أخذوا عنه أصول الكلام، مما جعل له السبق في نشر الفكر الأشعري بالقيروان أولاً ثم بقلعة بني حماد، فقد كانت له حلقات علم يشرح فيها كتاب التمهيد، وقد صرح بذلك في مطلع الكتاب، وكان يدرسه في أكبر جوامع القيروان وهو جامع عقبة بن نافع، وبجامع القلعة (ابن القاضي ، 1973، صفحة 387، ج 1)

ومن التلاميذ الذين درسوا على يد العالم عبد الجليل القروي، محمد بن داود بن عطية العكي الجراوي (ت525هـ/1131م)، أصله من إفريقية، واستوطن أبوه قلعة بني حماد يكنى أبا عبد الله، وكان من أهل العلم والفهم، وله مسائل مثورة (القاضي ، الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض، 2003، الصفحات 37-38) تلقى عنه العلم في قلعة بني حماد مما يؤكد حلقة التواصل بين القيروان وقلعة بني حماد حيث ساهم تلميذه كذلك في نشر الأشعرية والأصول.

كما جاءه الطلبة من كل حذب وصوب أين درس عليه في قلعة بني حماد أبو الحجاج يوسف بن عيسى ابن ملجوم الفاسي، وأجازه سنة 478هـ/1085م ثم رجع إلى المغرب الأقصى ونشر أفكار أستاذه مما بين تعدي التواصل بين القيروان والقلعة حتى إلى المغرب الأقصى والأندلس وصقلية، وهو ما حدث أيضاً لتلميذه أبو عبد الله بن أبي خير الموروري السرقسطي

الأندلسي(ت518هـ/1124م) له رحلة إلى قلعة بني حماد وهناك جلس لسماع عبد الجليل الدباجي ودرس عليه علم الأصول (ابن الأبار ، 1995، صفحة 276، ج3)، وعاد إلى الأندلس ونشر أفكاره. ومن صور التواصل الحضاري بين القيروان والقلعة كُتب هذا العلامة التي ألفتها في القلعة ككتاب التسديد، وكتاب المستوعب في أصول الفقه، وشرح كتاب اللامع في أصول الفقه لشيخه أبي عبد الله الأذري (الزركشي، 1994، صفحة 308، ج3)، وكتاب المُعْنَى في الممل والنحل، وهو كتاب ناقش فيه مختلف الديانات والممل، بذلك أسهم المؤلف في الحياة الفكرية بين القيروان والقلعة خاصة على مستوى نشر الفكر العقدي الأشعري، وعلى مستوى تدريس الطلبة سواء في القيروان أو في قلعة بني حماد.

وقد كانت القيروان أيام ابن رشيق قبله للطلاب في عهد بني زيري، والتقى فيها بالعديد من المشايخ ومن العلماء والفصحاء، وكان شيوخه ذوي اتجاهات واسعة متنوعة منهم من اشتهر باللغة ومنهم من غلب عليه النقد ومنهم من غلب عليه الشعر ومنهم من غلبت عليه الكتابة، وكانت تتجاذب في القيروان والمهدية العديد من الاتجاهات والثقافات التي تصل أصواتها من مصر والشام والمشرق والمغرب والأندلس.

ولابن رشيق آثار أدبية كثيرة، ولكن التي تفيدنا في التأريخ للحياة الثقافية والسياسية لمنطقة بلاد المغرب، نجد كتابه أنموذج الزمان في شعراء القيروان، حيث ضم فيه أزيد من مئة شاعر معاصر له، ويورد حاجي خليفة أن من بين تواريخ القيروان تاريخ أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، وأن له كتاب ميزان العمل في تاريخ الدول، حيث تعرض للقاضي أسد بن الفرات وفتح صقلية وكان أول اتصاله بالبلاط الصنهاجي -أو على الأصح بالأمير المعز بن باديس- سنة 417هـ/1026م حيث قدم إليه بقصيدة مدحه بها وذكر بناءً ابتناه بقصره بصيرة مطلعها:

ذمت لعينك أعين الغزلان قمر أقر لحسنه القمران

(ابن رشيق القيرواني ، 1986، صفحة 15)

ومن مظاهر التواصل الثقافي بين القيروان والقلعة ارسال سكان مدينة باغاي (كانت تابعة لقلعة بني حماد خلال القرن 5هـ/11م) إلى فقيه القيروان الجليل، أبو إسحاق التونسي(ت443هـ/1051م) استفتي في مسألة طلاق ومراجعة، بدون ولي النكاح من بني عبيد الشيعة، فأنكر عليهم ذلك (الدباغ، 1980، صفحة 177).

5- خاتمة:

كانت القيروان منذ تأسيسها على يد عقبة بن نافع الفهري عاصمة بلاد المغرب، وحاضرتها الأولى في الجانب السياسي والثقافي والمذهبي، ودامت في أوج ازدهارها لمدة قاربت الخمسة قرون،

أنتجت خلالها كل صنوف وأنواع المعرفة، لولا ما داهمها من تخريب على يد قبائل بني هلال وبني سليم.

شهدت القيروان الرفاهية السياسية باعتبارها كانت عاصمة لكل بلاد الغرب الإسلامي خلال عصر الولاة، ثم تحولت إلى حاضرة للدول المتعاقبة عليها بدءاً من الدولة الأغلبية وصولاً إلى الدولة الزييرية، كما شهدت حالة من الرفاهية الثقافية والدينية باعتبار كل المؤثرات المشرقية تبدأ من القيروان وتنتشر إلى كافة بلاد المغرب، كالفرق المذهبية والتيارات الكلامية، والاختلافات العقدية.

لقد أسهمت في القرن الخامس الهجري حواضر المغرب الأوسط وعلى رأسها قلعة بني حماد، في نشر ثقافة علمية وفكرية واسعة مست جميع جوانب العلم من أدب وشعر وتاريخ وفلك وطب، مما جعلها قبة للكثير من نخب بلاد المغرب، وهذا بفضل تشجيع حكام دولة بني حماد للعلم والعلماء، وتوفير الجو الملائم للبروز وفتح المجالس، وأماكن المناظرة.

لقد نوه أغلب المؤرخين إلى تاريخ ظهور قلعة بني حماد بأنها جاءت نتيجة لتظافر عدة عوامل منها هجرة الخلفاء الفاطميين إلى مصر وانتقال مركز حكمهم إلى القاهرة، إضافة إلى انتقال تسيير بلاد المغرب إلى بني زيري الصنهاجيين، وتوكل بني عمومهم للتصدي للخطر الزناتي في الجهة الغربية، مما سمح بظهور حماد بني بلكين وإنشائه للقلعة التي ستصبح عاصمته الرئيسية.

تبوأ القلعة مكانة سياسية وتاريخية وحضارية لمدة زمنية وصلت الستين سنة ثم بدأ دورها في التراجع لصالح العاصمة الجديدة بجاية وتصبح حاضرة ثانوية، وهذا راجع كله إلى الخطر الهلالي إضافة إلى القرار السياسي بهجرها والانتقال إلى الناصرية، وشكل بناء القلعة إيذاناً ببدء الدولة المركزية في المغرب الأوسط، وبداية لظهور المدن الحواضر التي بنيت بسواعد البربر.

امتزجت أواصر التواصل الثقافي بين الحاضرتين (القيروان والقلعة) خلال القرن الخامس هجري من خلال أفول حاضرة وبروز أخرى استقطبت النخب العلمية من فقهاء وعلماء وحرفيين وصناع، وأدباء وشعراء، فكانت القلعة خير بديل وخير وطن احتضن هؤلاء المهاجرين المميزين. تمثل التواصل الثقافي والحضاري بين الحاضرتين في نقل العلوم والمعارف والمذاهب والتصوف، بل ونقل حتى المصادر وأمّهات الكتب ونقل المعارف والخبرات المكتسبة في جميع المجالات كالبناء والزراعة والطبخ والموسيقى وغيرها من مظاهر التواصل الحضاري والذي كان متبادلاً في الاتجاهين.

المراجع والمصادر:

1. أبو عبيد البكري. (1971). *المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب*، وهو جزء من كتاب *المسالك والممالك*،. بغداد: مكتبة المثنى.
2. بدر الدين الزركشي. (1994). *البحر المحيط في أصول الفقه*. : دار الكتبي.
3. (2012).
4. ابن بسام الششتري . (1997). *الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة*. بيروت: دار الثقافة.
5. أبو الفضل يوسف ابن النحوي . (1984). *المنفحة*. الجزائر: المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع.
6. أبو زيد عبد الرحمن الدباغ. (1980). *معالم الإيمان*. تونس: المكتبة العتيقة.
7. أبو عبد الله ابن الأبار . (1995). *تكملة الصلة*. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر.
8. أحمد ابن خلكان . (1972). *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*. بيروت: دار صادر.
9. اسماعيل باشا . (1992). *هدية العارفين*. بيروت: دار الكتب العلمية.
10. التادلي ابن الزيات . (1995). *الشوف إلى رجال التصوف*. الرباط: منشورات كلية الآداب.
11. الصقلي ابن حمديس. (1985). *الديوان*. بيروت: دار صادر.
12. المكناسي ابن القاضي . (1973). *جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس*. الرباط: دار المنصور للطباعة.
13. جلال الدين السيوطي . (1964). *بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة*. القاهرة: مطبعة عيسى الباي الحلبي.
14. حسن ابن رشيق القيرواني . (1986). *أتمودج الزمان في شعراء القيروان*. تونس: الدار التونسية للنشر.
15. سليمان عشراي . (2002). *الشخصية الجزائرية، بانوراما المشهد الحضاري لميلاد الدولة الحمادية*. الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع.
16. شهاب الدين النويري . (1985). *نهاية الأرب في فنون الأدب*. بيروت: دار الكتب العلمية.
17. صلاح الدين الصفدي. (2000). *الوافي بالوفيات*. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
18. عبد الحليم عويس . (1999). *دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري*. القاهرة: دار الصحوة للنشر والتوزيع.
19. عبد الرحمن ابن خلدون . (2001). *العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر*. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر.
20. عبد الرحمن ابن عبد الحكم . (2001). *فتوح مصر والمغرب*. القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة.
21. عبد السلام الجعافرة. (2013). *التربية والتعليم بين الماضي والحاضر*. عمان الاردن: مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع.
22. عبد المنعم الحميري. (1975). *الروض المعطار في خبر الأقطار*. بيروت: دار القلم.

23. عبد الوهاب حسن حسني . (1990). كتاب العمر في المصنفات والمؤلفات التونسيين. بيروت: دار الغرب الاسلامي.
24. عزالدين ابن الأثير . (1986). الكامل في التاريخ. بيروت: دار الكتاب العربي.
25. عياض القاضي . (1983). ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
26. عياض القاضي . (2003). الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
27. محمد الطمار. (2010). المغرب الأوسط في ظل صنهاجة. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
28. ياقوت الحموي . (1990). معجم البلدان. بيروت: دار الكتاب العلمية.